الشاعر وروح العصر

من الأفكار السائدة الغالبة على الأذهان أن الشعراء هم المعبرون عن أرواح العصور والمحدثون عن دخائلها وأسرارها ، وفى هذا الرأى مقدار من الصواب والصحة لعله هو الذى أعان على ترويجه وإذاعته وجلاه فى مجلى الحقيقة المطلقة ، وأرى فى هذا الرأى ظلماً للعصر وحيفاً على الشاعر فى الوقت نفسه ، وقد يغرى الإنسان بأن ينسب إلى العصر صفة خاصة تميز بها شاعر من شعرائه أو بأن يعزو إلى الشاعر صفة تميز بها العصر وبرئ منها الشاعر ، ولست أنكر العلاقة الأكيدة بين الشاعر وعصره ، ومن أوضح عيوب المدرسة القديمة فى النقد عندنا ومن أكبر كبائرها أنها كانت تنظر إلى الشاعر باعتباره وحدة قائمة بذاتها فى صحراء الزمن لا صلة لها بالعصر ولا رابطة ، على حين أن الشاعر مهما ارتفع فى ذروة الفكر وحلق فى سماواته لا مفر له من أن يستنشق جو عصره سواء كان هذا الجو صافياً رائقاً أو ملوثاً فاسداً ، ولا قبل له على قطع الصلة بينه وبين العصر والتخلص من قيوده والإفلات من عيوبه أو حسناته ، وقد يعلمنا التاريخ أن مقداراً كبيراً من قوة الشاعر مرده إلى عصره ، وأن شيئاً كثيراً كذلك من ضعفه مرجعه إلى عصره ، ولابد لتكوين شاعر كبير مكتمل النواحى ناضج الشاعرية من قوتين ، قوة العصر وقوة العبقرية ، فإذا أقبل إلى الدنيا شاعر كبير فى عصر لم تكن الحياة الفكرية فيه جارية متدفقة مزدهرة نامية جاء الكثير من شعره رثًّا مملولا ساذجاً محصوراً مهما كان فيه من قوة العبقرية وصدق الشاعرية ، وإذا التأمت القوتان وتعاصرتا فهناك يظهر الشاعر الكبير ، ولذا يأتى كبار

الشعراء فى أزمنة النضج الفكرى وثورة الآراء وازدحام الأفكار واحتفال الخواطر ، مثل فرجيل الذى نبغ فى عصر أغسطس قيصر ومثل المتنبى والشريف والمعرى فقد نبغوا فى أنضج أوقات الحضارة الإسلامية وأحفل أزمنتها بالأفكار ومختلف الآراء ، ومثل شكسبير الذى حمله تيار إحياء العلوم ورفعته نهضة أوربا الروحية فى ذلك الوقت إلى مستوى يرتد دونه الطرف ، والسر فى ذلك أن نهضة الأدب لاتتم ولا تستكمل نموها إلا إذا اقترنت بنهضة الفلسفة ووثبة العلم ، ولذا ترى إلى جانب كل شاعر كبير فيلسوفاً يستند عليه ويستقى من بئره ، وعلاقة جيتى بالفيلسوف إسبنوزا معروفة ، وكذلك علاقة وردزورث وكولردج بفلسفة كانت ، وعلاقة المتنبى والشريف والمعرى بالفلسفة عامة ، والحق أن الشاعر الكبير يشيد المعابد الفنية الضخمة ويبنى الهياكل الرائعة والجواسق الجميلة ولكن ليس عليه استحضار الأحجار وجلب الصخور ونحتها وصقلها وإعدادها للبناء . ولا بأس فى أن تستورد له الأعمدة وسائر ما يلزمه فى إقامة أبنيته الفنية ولتشييد صروحه الخالدة ، والشاعر الحق ينتفع من مجهودات العالم ويستثمر الأفكار التى يصل إليها الفيلسوف عن طريق التجريد ويبعث فيها الموسيقية الساحرة ويسبغ عليها الجمال الفنى الرائع ، وليس على الشاعر ابتكار أفكار العصر وخلقها فإنما هذا من عمل الفيلسوف والعالم ، وعمل الشاعر هو التغنى بتلك الأفكار وأن يشعر بها ويشعر بها . ومن قصور الثقافة إعراض الأدباء عن العلم وزهدهم فى الفلسفة ، وبين الأدب والعلم والفلسفة صلة عضوية متينة لأنها مظاهر حياة الأمم الروحية ، ولما قوى التفكير العلمى فى القرن التاسع عشر ترك أثراً واضحاً فى الأدب ومذاهبه ، والعلم يفسح الآفاق وينير الطريق للشاعر كما تقدم له الفلسفة طائفة من الأفكار المناسبة العميقة ، والعمل على تفريق الإخوة الثلاثة من أخطر عيوب أدب الجيل الماضى ومن دواعى

تفاهة النقد وإسفافه وتدليه فى مهاوى الجدل العقيم والمنطق السقيم .

وأكثر المتشيعين للرأى القائل بأن الشاعر يعبر عن روح العصر من المتتبعين لخطوات النقادة الفرنسى المشهور «تين» ومن المتأثرين بمذهبه الذى شرحه بوضوح وجلاء فى مقدمة كتابه الجليل عن تاريخ الأدب الإنجليزى أو قراءة نفسية الإنجليز من خلال أدبهم كما حاول أن يسميه «سنت بيف» .

ويرى تين أن الأدب عنوان نفسية الشعوب ومفتاح قلوبها وأن الشاعر نتيجة عوامل ثلاثة وهى البيئة والسلالة والعصر ، وفى مذهب تين ضرب من المغالاة ويمكن أن نتتبع فيه نشوء الفكرة القائلة بإن الشاعر هو المعبر عن روح العصر ، وليس الأدب عنوان نفسية الشعوب كما يرى تين ، وإنما الأدب إلى حد كبير لا يعبر إلاّ عن نفسية الأدباء الممتازة المتفردة ، وإنما تتجلى نفسية الشعوب كاملة فى دراسة اللغات دراسة مستوفاة وفى استقراء الأفكار والمعتقدات والخرافات الدينية ، وقد أهمل تين تأثير العامل الشخصى ولم يدرجه فى كتيبة عوامل خلقه الثلاثة ، والعامل الشخص له أهميته ، وهو الذى يجعل شخصا بعينه يعبر عن حالة نفسية بذاتها وينفرد بها ، وهو عامل كبير الأثر وينبغى أن يحسب له حساب بعيد ، وسر هذا العامل قد يعجز النقد تعليله وتفسيره ، ولولا شدة تأثير هذا العامل البعيد عن متناول المفكر الاجتماعى والناقد لما وسع عصر واحد شاعرين متناقضين فى المذهب والطريقة مثل شلر وجيتى ومثل بيرون وشلى ومثل ابن الرومى والبحترى عند العرب .

ولعل الأصوب من ذلك والأقرب إلى الحق أن نقول إن لكل عصر روحا عامة يعبر كل فرد من أهله عن جانب منها ، وأن لروح العصر جوانب مختلفة ، فلا تستطيع شخصية من الشخصيات مهما عظمت واتسعت أن تعبر التعبير كله عن روح العصر ، فالسياسى مثلا يعبر عن جانب من آراء العصر السياسية

والفيلسوف يعبر عن جانب من مشاعر العصر وإحساساته ، ولقد يصح أن يكون الشاعر معبراً تاماً عن روح العصر ولكن هذا لا يكون إلا فى الأوساط التى تضؤل فيها الحياة الأدبية ويضيق الأفق الفكرى ، لأن ضيق الأفكار وانحصارها وبساطتها يمكنه من أن يتناول الحياة من جميع أقطارها ويحيط بشتى جوانبها وأن ينسج لها من خياله شبه شبكة تحويها ، ولكن فى الأوساط الراقيه حيث تتنوع الميول ويتكاثر تغاير الأمزجة وتختلف ألوان الطبائع وتزداد الأفكار تراكباً وتعقيداً ، فإن الشاعر لا مفر له من أن يكون شاعراً لطوائف خاصة يردد صدى نوازعها وينشر مطوى آمالها ومخاوفها ويفضى إليك بمسراتها وأحزانها ، بل إن الشاعر نفسه قد يعمل فى دوره على خلق شعور جديد ويملأ الناس بالحب له والإعجاب به ، انظر إلى قول وردزورث « الشاعر يخلق الوسط الذى يفهمه » فإذا كان مثلا يميل إلى الخمر فإنه يحبب الناس فى الخمريات ويحملهم على الرغبة فى التغنى بها بسحر بيانه وفتنة بلاغته .

ويروى أن قصة رينيه لشاتوبريان بعثت شباناً كثيرين على أن يتشبهوا برينيه فى جلال حزنه الرفيع حتى سئم ذلك شاتوبريان الذى كان يرى فى حزن رينيه جمالا يجب أن يستأثر به هو وحده وألا يشاركه فيه غيره ، وقد بلغ من تأثير أحزان ورتر لجيتى أنها حملت بعض شبان ألمانيا على الانتحار .